حول استخدام النقد التاريخي في دراسة السنة عند المستشرقين

On orientalists' use of "Historical Criticism" in the study of Sunnah

الدكتور مير أكبر شاه[i] الدكتور سيد نعيم بادشاه[ii]

Abstract

The Prophet's Sunnah stands for what is transmitted as deeds, sayings and approvals of the Prophet (s.a.w).After the Holy Quran, Sunnah is the second basic source of Islamic teachings and legislation. The development of Hadith Sciences has a unique position in the history of Critical Methodology, as no other personality has this sort of importance to differentiate his correct statements from incorrect. On the other hand, the use of historical criticism and critical methods has dominated much of the religious research undertaken this century in the West.The historical criticism deals with the studies of the scriptural text of Bible, Quran and Hadith as an historical document.It seeks to understand the text in terms of its historical scenario. For this purpose different methods of historical analysis are used at different stages to find the oral traditions behind the text, to determine its written sources, the final editor, and the transmitters of the text.The purpose of this research paper is to examine the applicability of "Historical Critical methodology'' to the study of Hadith. Furthermore, an evaluation has been made regarding the problems and weaknesses in its use.Like wise, in this study, the viewpoints of differernt orientalists have been mentioned regarding the historical critical methodology.

Key Words: Orientalists, Historical Criticism, Sunnah

إن الأمة الإسلامية كغيرها من الأمم لها علوم ومناهج، وقد أبدع علماء هذه الأمة في عصورهم الأولى في جميع مجالات العلوم ومناهجها. ولا يعقل أن يتحقق ذلك بمجرد الصدفة، بل لابد وأن تكون تلك الإبداعات استنادا إلى منهجية علمية.

[i] محاضر بقسم الدراسات الإسلامية، جامعة إسلاميه كالج بشاور

[ii] الأستاذ المشارك، رئيس قسم العلوم الاسلامية ، الجامعة الزراعية بشاور

والواقع أن المحدثين كان لهم قدم راسخة في إبراز منهجية النقد الحديثي لمعرفة صحيح الحديث من سقيمه، فاهتموا برواية الأحاديث النبوية، واختاروا لتحقيق الروايات وتوثيقها منهجا دقيقا من طريق دراسة السند ونقد المتن.

هذا وبجانب آخر إذا ما بدأت أروبا نهضتها العلمية التفتت إلى أهمية رسم طريق واضحة لتحصيل المعرفة، فجعلت المنهجية العلمية معيارا لقيمة البحث العلمي، وأصبحت المنهجية العلمية دستور كل معهد وجامعة في أروبا، وصار الغرب يتباهى بتلك المنهجية.

ومن المناهج التي حظّى بالاهتمام الكبير المنهج التاريخي، وهو المنهج الذي يقوم على عملية استرداد ما كان في الماضي ليتحقق من مجرى الأحداث. ولذلك احتلّ هذا المنهج مكانة عليا في الدراسات التاريخية، وأصبح معيارا للبحث العلمي في هذه الدراسات، بل وشاع استعماله في البحث الأكاديمي للأديان والكتب المقدسة في الأديان.

ولما كان بين منهجي النقد الحديثي والتاريخي نوعا من الصلة؛ لأن الهدف من كليهما البحث في الأخبار، وإن كان هناك فرقا كبيرا بينهما، وهو أن الحديث مصدره الوحي والتاريخ يكون مشتملا على أخبار الأمم. لذلك أردت أن أقوم بالبحث في هذا الموضوع.

هدف البحث

يهدف البحث إلى تحقيق أمرين هما:

1. هل يصلح النقد التاريخي لدراسة السنة النبوية ؟
2. ما هو ميزان النقد العلمي في المنهج التاريخي ؟

الدراسات السابقة

1. الموازنة بين المنهج الأوروبي والمنهج الإسلامي لعثمان موافي: تناول فيه الموازنة بين المنهج الأوروبي والمنهج الإسلامي، وموازنته وإن كانت مستقصية، لكنه خلط بين منهج المحدثين في نقد السند ومنهج المعتزلة العقلي لنقد المتن.
2. منهج النقد عند المحدثين للدكتور محمد مصطفى الأعظمي: عرض فيه منهج المحدثين، كما تعرّض في كتابه إلى المقارنة بين مناهج نقد الحديث والتاريخ. وقد جاء فعلا بسبق حقيقي في هذا المجال، لكن المقارنة بين المنهجين ليست مستوفية حيث استغرقت عدة صفحات.

3. منهج النقد عند المحدثين مقارنا بالميثودولوجيا الغربية للدكتور العمري: وهو مقال نشر في مجلة مركز بحوث السنة والسيرة، العدد الثالث، 1408هـ، وتكلّم فيه عن أساليب النقد عند المحدثين مقارنا بالمنهج التاريخي.

لكن إشكالية صلاح هذا المنهج لدراسة السنة النبوية لا زالت في حاجة إلى بحث مستقل، لإبراز موازينه العلمية، وبيان كونه متلائما للبحث الحديثي أو غير متلائم.

تعريف المنهج التاريخي

يقصد به القوانين العامة للوصول إلى الأحداث الماضية من خلال التحليل المفصّل التي تقود من المشاهدة المادية للوثائق إلى معرفة الوقائع[1].وقد قام بتوضيح معالم هذا المنهج عالمان فرنسيان لانجلو وسينوبوس في كتاب لهما "المدخل إلى الدراسات التاريخية"، وعالجا فيه شروط المعرفة في التاريخ، وعلاماتها وخصائصها، وكيفية التعامل مع وثيقة تاريخية، وقد ترجم هذا الكتاب الدكتور عبد الرحمن بدوي.

وهذا البحث التاريخي يمرّ من مرحلتين هما : الأولى: مرحلة جمع الأصول المرتبطة بواقعة تاريخية، وتمحيصها لإثبات صحتها وتعيين درجة الاعتماد عليها. والثانية : مرحلة إعادة بناء تصوُّر الواقع التاريخي بعد تجزئة المعلومات حولها وتصنيفها وترتيبها على أساس التسلسل المنطقي للحوادث[2].

استخدام النقد التاريخي في الدراسات الإسلامية

احتلّ النقد التاريخي في الغرب مكانة عليا في الدراسات التاريخية، وأصبح هذا المنهج مهيمنا على مجال البحث العلمي التاريخي. كما شاع استعماله في البحث الأكاديمي للكتاب المقدّس[3].

كما تناولت الدراسات النقدية عددا كبيرا من الموضوعات المرتبطة بالعقيدة والقرآن الكريم والسنة النبوية والسيرة والتاريخ. وقد تأثّر الباحثون في هذه الدراسات بمنهجية البحث العلمي السائدة في الغرب. والمنهج الذي طبّقوه في دراساتهم وخاصة الكتاب المقدّس هو المنهج التاريخي.

وعلى سبيل المثال نرى أثر جيفري يذكر قلّة الاهتمام بالدراسات النقدية في القرآن الكريم ويدعوا إلى تناول الموضوعات المرتبطة بالقرآن الكريم في ضوء نقد الكتاب المقدّس:

> "ولا يخفى على المطّلع أنّ علماء النصارى وعلماء اليهود قد جدّوا منذ جيلين في طلب تحقيق تاريخ الإنجيل والتوراة، وأنهم فازوا بنتائج باهرة، لها أثر عظيم في تفسير هذين الكتابين وتأويلهما، وأمّا القرآن فلم نجد شيأ من هذه الأبحاث فيه سوى كتاب واحد بسيط، وهو كتاب تاريخ القرآن لأبي عبد الله الزنجاني الذي طبع حديثا في مصر[4]."

والهدف من استخدام النقد التاريخي في دراسة الأديان وكتبها المقدّسة هو الكشف عن نشأتها وطبيعتها[5].والفكرة الرئيسية في هذا المنهج أن الأديان تمرّ بمراحل نشأة وتطوّر في التاريخ وأنها تكون خاضعة لقانون التأثّر والتأثير، فهي أديان متطوّرة في التاريخ[6].

أهمّ المستشرقين الذين تناولوا الموضوعات الإسلامية متأثّرين بمنهج النقد التاريخي

قد تناولت الدراسات الإسلامية عند المستشرقين عددا من الموضوعات المرتبطة بالقرآن الكريم والسنة والسيرة النبوية والتاريخ الإسلامي على أسس منهجية نقدية متأثّرين بهذا المنهج.

من أهمّ المستشرقين الذين عكفوا على الدراسات القرآنية

1. **تيودور نولدكي** (Th. Noldeke) الذي يعدّ بحقّ مؤسس الدراسات النقدية عن القرآن الكريم متأثرا بنقد العهد القديم، وهو صاحب تأثير كبير على المستشرقين من بعده في الدراسات النقدية. ويظهر تأثّره بنقد العهد القديم في دراساته عن القرآن الكريم في رسالته للدكتوراه بعنوان: "أصل وتركيب سور القرآن"، وأعماله الأخرى. وقد أعطى نولدكه لرسالتها عنوانا جديدا بعد إعادة النظر فيها، وسمّاها بعنوان: تاريخ النص القرآني.
2. **يوليوس فلهاوزن** (J. Wellhausen) يعدّ فلهاوزن المطوّر الحقيقي لعلم نقد العهد القديم، وقد دخل فلهاوزن إلى حقل الدراسات الإسلامية والقرآنية بعد أن تمكّن من المنهج في نقد العهد القديم[7].

أبرز المستشرقين الذين تناولوا موضوعات السنة النبوية

1. إجناس جولدتسيهر (Ignaz Goldziher) 1850م-1921م. يعتبر جولدتسيهر عمدة المستشرقين في التاريخ الحديث، و يعدّ الرائد الأول في دراسة السنة ونقدها مستعينا بالنقد التاريخي، وقد تأثّر في الدراسات الإسلامية بالمدرسة النقدية لكتاب المقدس[8].
2. **كايتاني** (Leone Caetani) 1869م–1935م. يعدّ كايتاني من روّاد ومؤسّسي دراسة السنة وأسانيدها في ضوء النقد التاريخي. فقد قدّم تحليله واستنتاجاته بخصوص التناقضات والخلافات في المصادر الإسلامية في عمله التذكاري في عشر مجلدات"Annali dell'Islam" واستنتج بأنّ أغلب الأسانيد يمكن أنها أضيفت من قبل المؤلفين في الأجيال التالية.
3. **جوزيف شاخت** (Joseph Schacht) 1902م–1969م. يعدّ شاخت أبرز من كتب في موضوع

السنة النبوية وحجيتها، وأصبح كتابه: "أصول الفقه المحمدي" أساسا لجميع الدراسات المستقبلية في الحضارة الإسلامية والفقه الإسلامي.

أبرز المستشرقين الذين تناولوا السيرة النبوية

1. **مرجوليوث** (D. S. Margoliouth) 1858م- 1940م. ويظهر تأثّره بالنقد التاريخي في دراساته عن السيرة والتاريخ الإسلامي في كتابيه: "المحمدية" و"محمد ونشأة الإسلام" ومحاضراته العلمية".
2. **مونتجومري وات** (Montgomery Watt) عمل عميدا لقسم الدراسات العربية بجامعة أدنبرا، له مؤلفات عديدة في السيرة من أشهرها :"محمد في مكة" و "محمد في المدينة[9].

العيوب المنهجية في استخدام النقد التاريخي في دراسة السنة النبوية

كون المنهج التاريخي نظريا

إن جمع الأصول هي الخطوة الأولى في المنهج التاريخي إلا أنها ربما تكون نظرية لدى المؤرخين، بينما قام المحدثون بهذه الخطوة فعلا حيث يوجد حديث واحد أو بلغة المؤرخين وثيقة واحدة في عشرات من الأصول الحديثية[10]. إذن كيف يصلح تطبيق المنهجية التي هي نظرية على الوثيقة الحديثية التي جمعت فعلا من أصول متعددة

التعميم في المنهجية وفساده

من مسلمات المنهج العلمي أن يكون صالحا لموضوع البحث، فالتزام المنهج المناسب لمجال البحث يكون ضمانا لتوليد معرفة صحيحة، وعدم مراعاة التناسب بين المنهج والموضوع سيؤدّي إلى معرفة فاسدة ونتائج خاطئة. ولذلك يشترط في المنهج العلمي ثلاثة شروط: الأول: أن يكون منهجا محددا. الثاني: أن يكون ملائما لموضوع البحث. الثالث: أن يكون متناسبا مع طاقة العقل وفي حدود قدراته[11].

وانطلاقا من هذا حينما ننظر في دراسات المستشرقين للقرآن الكريم والسنة النبوية نجد أنهم يطبقون نفس المنهج الذي طبّقوه في نقد الروايات التاريخية ونقد الكتاب المقدس. واعتقد هؤلاء الباحثون أن ما ينطبق على الكتاب المقدس صالح للتطبيق على القرآن الكريم والسنة النبوية. وهذا التعميم المنهجي هو الخطأ الأول الذي وقع فيه المستشرقون حيث اعتقدوا أن الموضوع المدروس واحد، ولا يوجد فرق بين النصوص الدينية المقدسة في اليهودية والنصرانية وبين النصوص الدينية المقدسة في الإسلام.

يقول الدكتور محمد حسن خليفة عند نقد المنهجية الاستشراقية في الدراسات النقدية:

"والخطأ الأول هو خطأ التعميم الذي وقع فيه المستشرقون. وهذا الخطأ المنهجي الاستشراقي ينبع من الاعتقاد في أنّ ما ينطبق على اليهودية والنصرانية ينطبق بالضرورة على الإسلام، وأنّ ما ينطبق على النصوص الدينية المقدسة في اليهودية والنصرانية صالح للتطبيق على الإسلام[12]."

ولاشك أنّ بين النصوص الدينية في اليهودية والنصرانية وبين النصوص الدينية في الإسلام فرق كبير:

وهو أن بالنسبة للقرآن الكريم ليس هناك فترة يمكن أن تسمى تاريخا؛ لأن زمن الوحي الذي لم يتجاوز ثلاثة وعشرين عاما، إذن فترة تلقي الوحي لايكوّن تاريخا. وقد تمّ كتابته أمام النبي صلى الله عليه وسلم مع تمام نزول الوحي.

أما اليهودية والنصرانية ديانتان تاريخيتان، كما أن النصوص الدينية المقدسة في اليهودية لها تاريخ طويل يقترب من ثمانمائة عام بين زمن نزول الوحي وتدوينه، فهي نصوص لها تاريخ وقع من خلاله كل أنواع التحريف والتبديل. وكذلك بالنسبة للعهد الجديد فلكل إنجيل من الأناجيل الأربعة تاريخ[13].

وأما بالنسبة للسنة النبوية فقد تلقّاها الصحابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مباشرة، وكانوا يتحرون في السماع، ويدقّقون في التحديث عنه. وهكذا قام بنقلها علماء الأمة في كل عصر جيلا بعد جيل حفظا وكتابة. كما أنهم طبقوا منهجا نقديا على الروايات المنسوبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث كانوا يرون مسئلة المنهج فعلا من الدين.

وهذا هو فرق جوهري هامّ. فالنصوص الدينية المقدسة في اليهودية والنصرانية تاريخية بمعنى أنه مرّ عليها زمن طويل وقع فيها من خلاله تحريف وتبديل. أما السنة النبوية فليس لها تاريخ بهذا المعنى؛ لأن النقد الحديثي نشأ منذ وقت وقوع الروايات الحديثية، فكانا متلازمين في كلّ العصور، ولم تكن هناك أدنى مفارقة بين المنهج وتنفيذه. فإذا كان هناك منهج خاص لنقد الروايات الحديثية، فلا يبقى لأيّ منهج آخر مجال فضلا على أن النقد التاريخي لايصلح لنقد الروايات الحديثية.

يقول الدكتور محمد حسن خليفة :

"والنقطة النقدية المهمة التي نواجه بها جولد تسيهر ومدرسته في النقد التاريخي هي أن هذا المنهج يصلح لما هو تاريخي، ولايصلح لما هو غير تاريخي[14]."

غموض الميزانية العلمية للمنهج التاريخي

النقد التاريخي كما مرّ سابقا هو محاولة استرداد ما كان في الماضي من مجرى الأحداث. وليس المراد منه التحقّق من مجرى الأحداث فعليا، فهذا ليس في وسع أيّ كائن من كان أن يقوم به، وإنّما المراد منه محاولة استعادة

ما جرت عليه أحداث التاريخ في الذهن وبطريقة عقلية[15].

ويتّضح من هذا أنّ الموازين العلمية النقدية في المنهج التاريخي غير واضحة، فالميزان هو ملاحظة الباحث وخياله الذهني . فالأساس الذي يقوم عليه هذا المنهج هو الظنّ والتخمين. وهذا أمر ثابت أن إدراك أيّ حقيقة ينبغي أن يكون له أساس علميّ، وذلك؛ لأن العلم لا يتولّد إلا عن علم مثله، والظنّ لايصلح أن يكون سبيلاً إلى العلم بحال[16].

يقول الدكتور مصطفى السباعي بخصوص الموازين العلمية في بحوث المستشرقين:

"يعتمد جمهرة المستشرقين في تحرير أبحاثهم عن الشريعة الاسلامية على ميزان غريب بالغ الغرابة في ميدان البحث العلمي، فمن المعروف أن العالم المخلص يتجرد عن كل هوى وميل شخصي فيما يريد البحث عنه ويتابع النصوص والمراجع الموثوق بها، فما أدت إليه بعد المقارنة والتمحيص كان هو النتيجة المحتمة التي ينبغي عليه اعتقادها. ولكن أغلب هؤلاء المستشرقين يضعون في أذهانهم فكرة معينة يريدون تصيد الأدلة لإثباتها، وحين يبحثون عن هذه الأدلة لا تهمهم صحتها بمقدار ما يهمهم إمكان الاستفادة منها لدعم آرائهم الشخصية[17]."

أما في رأي الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي فالمنهج الغربي للبحث خال من أيّ ميزان علمي حيث يتكلم عن الميزان العلمي للبحث في المنهج الغربي:

"فالواقع أن المنهج الغربي للبحث خال، إلى الآن، من أيّ ميزان موضوعي لتحقيق كلّ ما يتعلق بالرواية والنقل...والأداة التي يستخدم بها الباحث، ملاحظته ووجدانه وخياله، وكلّ ما قد يقع عليه من آثار وأحداث ووقائع. وكيفية البحث هي أن يعكف الباحث على ما تجمّع لديه من هذه الآثار أو الأحداث، فيقدح فيها الملاحظة والوجدان والخيال ليستنتج من وراء ذلك ما قد يطمئن إليه من مبادئ وأحكام ووقائع[18]."

إشكالية صلاح المنهج التاريخي للنقد الحديثي

لا شكّ في وجود فرق أساسي كبير بين الروايات الحديثية والأخبار التاريخية، وهو أن الحديث مصدره الوحي، ويتبنّى عليها الأحكام التشريعية، أمّا التاريخ فيكون مشتملا على أخبار الأمم، إلاّ أنّ بينهما نوعا من الصلة؛ لأنّ كليهما عبارة عمّا حدث في الماضي.

والأخبار الماضية لا تصلح الاعتماد عليها إلاّ بعد التحقّق من صحتها، إذا لا بدّ لكلّ خبر أنّ يتوثّق قبل الاعتماد عليه، أيّا كانت هذه الأخبار من روايات حديثية أو وقائع تاريخية.

فالروايات الحديثية ليست مجرد أخبار كالأخبار التاريخية، بل لها مكانة عظمى، وهي أنها مأخذ للشريعة

الإسلامية. ولذلك كان الاهتمام بها منذ الوقت الذي وقعت فيه. فقد اهتمّ الصحابة ومن بعدهم من علماء الأمة بنقلها، كما اعتنوا العناية الكاملة بالتحقّق من صحتها ونسبتها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا لأن مسئلة المنهج كانت فعلا من الدين، كما قال عبد الله بن المبارك: الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء[19].

أما الروايات التاريخية فهي ليست كذلك، حيث يتكوّن التاريخ من وقائع حدثت في الماضي، والماضي من خصائصه عدم قابلية الإعادة، فلذلك يحتاج إلى محاولة الاستعادة في الذهن وبطريقة عقلية ما جرت عليه أحداث التاريخ[20].وبعد النهضة العلمية في أروبا التفت علماء الغرب إلى أهمية رسم طريق واضحة لتحصيل المعرفة، فجعلت المنهجية العلمية معيارا لقيمة البحث العلمي، والمنهج الذي اختاروه للتحقّق من الأخبار التاريخية هو المنهج التاريخي[21].

وهذا يدلّ أنّ منهج الحديثي نشأ منذ وقت وقوع الروايات الحديثية، فكانا متلازمين في كلّ العصور، ولم تكن هناك أدنى مفارقة بين المنهج وتنفيذه. أما المنهج التاريخي فقد نشأ منفصلا تماما عن التاريخ، فقد ظلّ التاريخ لقرون طويلة دون أيّ منهج علميّ يحتكم إليه في نقد أخبار هذا التاريخ[22].

مثال للاكتشاف في ضوء منهج النقد التاريخي

ما قاله جولدتسيهر: إنّ عبد الملك بن مروان كان خائفا من عبد الله بن الزبير من أن يأخذ البيعة من الشاميين الذين يحجون إلى بيت الله الحرام، لذلك التجأ إلى حيلة، وهي الحج إلى قبة الصخرة بالقدس بدلا عن الحج إلى مكة. ولذلك أصدر قرارا بأن الطواف حول الصخرة بالقدس يقوم في شرعيته مقام طواف الكعبة في الإسلام. ولقد أسند إلى المحدّث الزهري لبرّر هذا الهدف السياسي باختراع حديث موصول إلى النبي صلى الله عليه وسلم ونشره بين الناس يفهم منه بأن هناك ثلاثة مساجد يمكن أن يحجّ الناس إليها: مكة والمدينة والقدس.

نقد هذه المنهجية

الطريقة المسلوكة في البحث العلمي الاستشراقي هو جمع الآراء والتصورات ليستنتج بالاكتشاف ما كان منها مطابقا للظروف المحيطة بالواقعة.

ولكن يلاحظ في هذا الأسلوب أن الاعتماد فيه يكون على ظروف الأحوال، والسؤال ههنا هو أنّ هذه الظروف من سيقوم بتحديدها. وطبعا الأمر سيكون مفوّضا إلى تخيّل الباحث. وكما يتّضح من هذا المنهج أن المقصود من مطابقة ظروف الأحوال هو تخيّل الأخبار بالآراء والأوهام، فالاعتماد يكون بالتخيّل

الذي يعبّرون عنه بالعقل.

والأمر الثاني الذي يلاحظ هو اعتبار المتن بغض النظر عن إسناده متوتراكان أم ضعيفا. فقد يكون الخبر مقبولا لديهم إذا وافق ظروف الأحوال ، وإن كان سنده ضعيفا وحتّى موضوعا. وبالعكس يكون الخبر مردودا إذا لم يوافق ظروف الأحوال وإن كان سنده متوترا.

يقول أثر جيفري (Arthur Jeffery) عن طريقة الباحثين في الدراسات النقدية:

"وأمّا أهل التنقيب فطريقتهم في البحث أن يجمعوا الآراء والظنون والأوهام والتصورات بأجمعها ليستنتجوا بالفحص والاكتشاف ماكان منها مطابقا للمكان والزمان وظروف الأحوال معتبرين المتن دون الإسناد.[23]"

فالسبيل المتخذة في البحث بهذا الأسلوب فاسد لأمور:

الأول: استناد هذه الطريق إلى الآراء والأوهام.

الثاني: اعتبار مطابقة ظروف الأحوال دون تحديد هذه الظروف.

الثالث: عدم اعتبار الإسناد، والحال أنّ صاحب الرواية يكون له دور هامّ في صحة الرواية أو عدم صحتها.

الأسئلة المثارة حول هذا الاستنتاج

هذا الاستنتاج الذي اكتشفه جولدتسيهر من المفروض أن ينظر في الميزان العلمي، والأسئلة التي يمكن أن تثار حول هذا الاستنتاج. منها:

أولا: هل كان في وسع عبد الملك بن مروان أو غيره إلى الحج إلى مكة، وإيجاد بديل عنه؟؛ لأن بناء قبة أو بيت ليحج الناس إليه وترك حج بيت الله الحرام هو كفر ومروق من الدين، والفاعل لمثل هذا يعتبر مهدورا الدم، فكيف يظنّ بالخليفة أن يكون مغفلا إلى هذا الحدّ بأن يفعل فعلا يمنح أعداءه فرصة حتى يستخدموه سلاحا ضدّه

ثانيا: إن الإمام الزهري ولد سنة 51 أو 58 للهجرة، ومقتل عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما كان سنة 73هـ، فيكون عمر الزهري حينئذ 22 سنة على الرواية الأولى، و15سنة على الرواية الثانية. فهل يعقل أن يصبح الزهري في هذه السن المبكرة مشهورا في الأوساط العمية، بحيث تتلقى منه حديثا موضوعا لإلغاء فريضة الحج، وقد كان هناك عدد من الصحابة وكبار التابعين، فهل يتوقع منهم السكوت على هذا التزوير[24].

ثالثا: هذا الحديث لم ينفرد الزهري بروايته، بل روي من طرق متعددة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه من غير طريق الزهري، فقد روي من طريق قزعة، وأبي الوداك، وشهر، وعكرمة مولى زياد وعطية كلهم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. كما رواه الصحابة الآخرون غير أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، منهم: أبو بصرة الغفاري، وعلي وأبو هريرة، وابن عمر رضي الله عنهم[25].

رابعا: هذا الحديث رواه الزهري عن شيخه سعيد بن المسيب، فهل يعقل أن يسكت سعيد على ما يفترى عليه من قبل الزهري أو غيره. وهذا لا يتصوّر من إمام الحديث مثل سعيد بن المسيب، حيث عاش بعد مقتل ابن الزبير عشرون سنة، حيث توفي سنة 73هـ، فكيف سكت عن مثل هذا الوضع.

المثال لنقد النص

ما ذكره المستشرق جولدزيهر حيث قدّم من خلال نقده وادعائه أن الأحاديث تمّ وضعها لأغراض متنوعة، فأورد ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم:

"أن أمر بقتل الكلاب، إلا كلب صيد، أو كلب غنم، أو ماشية، فقيل لابن عمر: إن أبا هريرة يقول: أو كلب زرع، فقال ابن عمر: إن لأبي هريرة زرعا. ثم زعم أن ابن عمر رضي الله عنه ذكر ثلاثة أنواع الكلاب، وحينما أخبر أن أبا هريرة رضي الله عنه يزيد فيه أو كلب زرع، فاستنتج من ذلك أن هذا النوع الرابع وضعه أبو هريرة رضي الله عنه من عند نفسه لغرض شخصي، وأيّد هذا الادعاء بقول ابن عمر: إن لأبي هريرة زرعا[26]."

نقد هذه المنهجية

هذا مثال من أمثلة نقد النص عند المستشرقين في ضوء النقد التاريخي، لكن هذه المنهجية فاسدة لفقدانها الخطوة الأساسية التي من متطلبات نقد النص، وهي محاولة الناقد أن يجمع الأصول التي يمكن التصل إليها، وقد أهمل جولدزيهر هذه الخطوة حيث اكتفى بإيراد نص من مكان واحد، فلو تكلف عناء الطلب من مكان آخر سواه لظهرت له الحقيقة ولما قام بهذا الخطأ الفاحش، ويبعد عن عالم مثله أن يكون ذلك نسيانا، بل يبدوا أنه فعل ذلك متعمدا.

وقد رواه غير واحد من الصحابة منهم: عبد الله بن عمر وأبو هريرة وعبد الله بن مغفل رضي الله عنهم. وعن ابن المغفل، قال: أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل الكلاب، ثم قال: ما بالهم وبال الكلاب؟، ثم رخص في كلب الغنم، والصيد، والزرع[27].

وعن سفيان بن أبي زهير وكان من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من اقتنى كلبا لا يغني عنه زرعا ولا ضرعا نقص كل يوم من عمله قيراط[28].

نتائج البحث

هذه بعض الملاحظات على المنهجية النقدية في دراسة السنة والسيرة النبوية عند المستشرقين: هيمنة المنهج التاريخي في الغرب على مجال البحث العلمي التاريخي وشيوع استعماله في البحث الأكاديمي للكتاب المقدّس

للكشف عن نشأتها وطبيعتها.من أهمّ المستشرقين في هذا المجال: إجناس جولدتسيهر الذي يعدّ الرائد الأول في دراسة السنة ونقدها مستعينا بالنقد التاريخي. وكايتاني الذي يعتبر من روّاد ومؤسّسي دراسة السنة وأسانيدها في ضوء هذا المنهج. وجوزيف شاخت حيث يعدّ أبرز من كتب في موضوع السنة النبوية وحجيتها.تطبيق المستشرقين النقد التاريخي واستخدامه في دراسة السنة من غير مراعاة التناسب بين المنهج والموضوع تعميم فاسد ما يؤدّي إلى معرفة فاسدة ونتائج خاطئة.عدم احتياج السنة النبوية إلى منهج نقدي آخر مع وجود منهج خاص يمتاز به حيث عنيت بالتحصيل والحفظ عناية بالغة ما لم يحظ بها خبر نبي من الأنبياء ولا وثيقة من الوثائق التاريخية.الميزانية العلمية في المنهج التاريخي غامضة، وهي ملاحظة الباحث وخياله الذهني ؛ لأن هذا النقد هي محاولة استرداد ما كان في الماضي من مجرى الأحداث في الذهن وبطريقة عقلية. وليس المراد منه التحقّق من مجرى الأحداث فعليا، فهو ليس في وسع أحد أن يقوم به.من الأسئلة المثارة في هذا الصدد كون صلاحية منهج النقد التاريخي للنقد الحديثي مع وجود فرق كبير بين الروايات الحديثية وأحداث التاريخ، حيث أن الأخبار الماضية لا تصلح الاعتماد عليها إلاّ بعد التحقّق من صحتها، أما الروايات الحديثية فلها مكانة عظمى لكونها مأخذ للشريعة الإسلامية. ولذلك كان الاهتمام بها منذ الوقت الذي وقعت فيه. وقد كان وقوع الروايات الحديثية ومنهجها متلازمين في كلّ العصور. أما المنهج التاريخي فقد نشأ منفصلا تماما عن التاريخ، فقد ظلّ التاريخ لقرون طويلة دون أيّ منهج علميّ يحتكم إليه في نقد أخبار هذا التاريخ.إهمال المستشرقين الخطوات الرئيسية في هذا المنهج النقدي كما ظهر من الأمثلة.

الحواشي والهوامش

1 لانجلوا وسينيبوس، النقد التاريخي: 44،ترجمه عبد الرحمن بدوي، الطبعة الرابعة، 1981م

2 المنفس المصدر 44

3 Historical Method in the Study of Religion, pp 3, by: Morton Smith, Sourse: History and Theory, Vol. 8, 1968, Published by Wesleyan Uniresity.

د. أحمد محمد جاد،النقد التاريخي لأسفار العهد الجديد في الدراسات الغربية المعاصرة، ، إصدار خاص في مجلّة كلية دار العلوم، 1428هـ/2007م.

4 مقدّمة أثر جيفري لكتاب المصاحف see: www.muhammadanism.org, November 24, 2005.

5 Historical Method in the Study of Religion, p 1, by: Morton Smith.

6 الدكتور حسن خليفة، دراسة القرآن الكريم في ضوء نقد علم الكتاب المقدس:29، ، صدر عن وزارة الشئون الإسلامية بالمدينة المنورة(س–ن)

7 دراسة القرآن الكريم في ضوء نقد علم الكتاب المقدس:20

8 النفس المصدر11

9 الدكتور نجيب العقيقي، المستشرقون 2: 554، دار المعارف، القاهرة، 1964م

10 الدكتور محمد مصطفى الأعظمي،منهج النقد عند المحدثين: 96، مكتبة الكوثر، 1410ه/ 1990م

11 الدكتور حلمي عبد المنعم صابر، منهجية البحث العلمي وضوابطه في الإسلام: 19، صدر عن رابطةالعالم الإسلامي بمكة المكرمة، عام 1418ه

12 دراسة القرآن الكريم في ضوء نقد علم الكتاب المقدس:14

13 النفس المصدر: 15

14 دراسة القرآن الكريم في ضوء نقد علم الكتاب المقدس:14

15 عبد الرحمن بدوي، النقد التارخي: 173، الناشر: وكالة المطبوعات الكويت،1981م

16 د. حلمي عبد المنعم صابر، منهجية البحث العلمي وضوابطه في الإسلام: 59، صدر عن رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، عام 1418ه

17 الدكتور مصطفى السباعي، منهجية الاستشراق والمستشرقون :34،بيروت المكتب الإسلامي، 1979م

18 المنهجية العلمية لدى المسلمين من مقدمة "كبرى اليقينيات الكونية":18

19 امام مسلم،مسلم بن الحجاج،مقدّمة صحيح مسلم 1: 12، المكة المكرمة: إدارة البحوث العلمية والإفتاء، 1400ه/1980م

20 ترجمه عبد الرحمن بدوي، النقد التارخي:173،وكالة المطبوعات الكويت، الطبعة الرابعة، 1981م

21 منهج المحدثين بين نظرية المنهج وتاريخ العلوم:1

22 هل يفى منهج حفاظ الحديث بمتطلبات المنهج التاريخى فى مقارنة الأديان، عصام أنس الزفتاوى :1

23 مقدّمة أثر جيفري لكتاب المصاحف see: www.muhammadanism.org, November 24, 2005.

24 منهج النقد عند المحدثين:127-132

25 منهج النقد عند المحدثين:130-131

26 امام مسلم،مسلم بن الحجاج،صحيح مسلم 3: 1200، دار إحياء التراث العربي، بيروت(س–ن)

27 صحيح مسلم، كتاب المساقاة، باب الأمر بقتل الكلاب، وبيان نسخه، وبيان تحريم اقتنائها إلا لصيد، أو زرع، أو ماشية ونحو ذلك3: 1200

28 امام بخاري،أبوعبدالله محمد بن اسماعيل،صحيح البخاري 817/2، كتاب المزارعة، باب اقتناء الكلب للحرث2: 817، دار ابنكثير ، اليمامة، بيروت، الطبعة الثالثة، 1407ه/1987م